الارملة المرضعة

La Veuve qui allaite.

القصيدة التي القاها الاستاذ الشاعر الكبير معروف الرصافي في حفلة جمعية حماية الاطفال التي اقيمت في صباح ١١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٩

لقيتها لبتني ما كنت القـاها ... تمشي وقد اثقل الاملاق ممشاها
اثوابهـا رثة والرجـل حافية ... والدمع تذرفه في الخـد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعهـا ... واصفر كالورس من جوع محياها
مات الذي كان يحميها ويسعدها ... فالدهر من بعده بالفقر اشقاها
الموت افجعها والفقر اوجعهـا ... والهم انحلهـا والغم اضنـاها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها ... والبؤس مرآة مقرون بمرآها
كم الجديدين قد ابلى عباءتها ... فانشق اسفلهـا وانشق اعلاها
ومزق الدهر ، ويل الدهر ، مئزرها ... حتى بدا من شقوق الثوب حياها
تمشي باطمارها والبرد يلسعهـا ... كانه عقرب شالت زباناها
حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا ... كالغصن في الريح واصطكت ثنایاها

***

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها ... حملا على الصـدر مد ما يمناها
قـد قمطتهـا باهـدام ممزقة ... في العين منشرها سمج ر لواها
ما انس لا انس اني كنت اسمعها ... تشكو الى ربها اوصاب رد ما
تقول يا رب لا تترك بلا لـبن ... هذي الرضيعة وارحمني وایاها
ما تصنع الام في تربيب طفلتها ... ان مسها الضر حتى جف ثدياها
يا رب ما حيلتي فيهـا وقد ذبلت ... كزهرة الروض فقد الغيث اظماها
ما بالها وهي طول الليـل باكية ... والام ساهرة تبكي لبكاها
يكاد ينقد قلبي حين انظرها ... تبكي وتفتح لي من جوعهـا فاها
ويلمهـا طفلـة باتت مروعـة ... وبت من حولها في الليل اوعاها
تبكي لتشكو من داء الم بهـا ... ولست افهم منها كنه شكواها

قد فاتها النطق كالعجماء ارحمها ولست اعلم أي السقم آذاهـا
ويح ابنتي ان ريب الدهر روعها بالفقر واليتم آها منهمـا آهـا
كانت مصيبتها بالفقر واحـدة وموت والدهـا باليتم ثنـاها

* * *

هذا الذي في طريقي كنت اسمعه منهـا فاثر بي نفسي واشجاها
حتى دنوت اليهـا وهي ملتفـة وادمعي اوسعت بي الخد مجراها
وقلت يا اخت مهلا انني رجـل اشارك الناس طرا بي بلاياها
سمعت يا اخت شكوى تهمسين بها بي قالة اوجعت قلبي بفحواها
هل تسمح الاخت لي اني اشاطرها ما في يدي الان استرضي به اللاها
ثم اجتنبت لها من جيب ملحفتي دراهما كنت استبقي بقاياها
وقلت يا اخت ارجو منك تكرمتي باخذها دون ما من تغشاها
فارسلت نظرة رعشاء واجفـة ترمي السهام وقلبي من رماياها
واخرجت زفرات من جوانحهـا كالنار تصعد من اعماق احشاها
واجهشت ثم قالت وهي باكيـة واها لمثلك من ذي رقة واها
لو عم في الناس حس مثل حسك لي ما تاه بي فلوات الفقر من تاها
لو كان في الناس انصاف ومرحمة لم تشـك ارملة ضنكا بدنياها

* * *

هـذي حكاية حال جئت اذكرها وليس يخفى على الاحرار مغزاها
اولى الامام بعطف الناس ارملة واشرف الناس من في المال واساها

« على » في مختار الصحاح

جاء في مختار الصحاح « على : حرف خافض يكون اسما وفعلا وحرفا » فأقول إن الحرف لا يكون اسما ولا فعلا . لان « على » حرف الجر هو غير «علا» الفعل الماضي المتصرف . وقول الشاعر « غدت من عليه تنفض الطل بعد ما » معناه من « فوقه » وهو الصواب ولكن الضرورة الجأته إلى ذلك . ولو جاز ذلك بي النثر لجاز لنا أن نقول «رأينا العدو فهربنا الى عنه» والسماجة في القول كالح وجهها يسيء الناظرين .

مصطفى جواد